محمد علي باشا

للدول الاوربيَّة قناصل في الشرق يهتمون بمصالح قومهم المقيمين فيهِ ويخبرون رجال حكومتهم عمَّا يحدث في البلاد التي هم فيها اوعمَّا يتَّصل بهم خبرهُ . والغالب انهم يكتبون عن علم وروية ودولهم تعتمد على اخبارهم وتبني سياستها عليها . وقناصل الانكليز في الطبقة الاولى بين قناصل الدول الاوربية من حيث جمع الاخبار وصدق الرواية وصحة الحكم ومنهم رجل اسمهُ المستر جون باركر اقام في سورية والعراق والقطر المصري قنصلاً لدولتهِ في اوائل القرن الماضي واواخر الذي قبلهُ . وقد نشر ابنهُ تاريخ اعمالهِ في مجلدين فيهما كثير من المكاتيب الرسمية التي كتبها الى رجال دولتهِ وغير الرسمية التي كتبها الى اصدقائهِ وذوي قرباهُ وتظهر منها احوال البلاد التي كان فيها ظهوراً خالياً من شوائب الغرض لاسيما وانهُ كان مشهوراً باستقامتهِ ونهامتهِ ودقة نظرهِ وقلَّة مجاملتهِ

ولما كثر ذكر محمد علي باشا في هذه الايام رجعنا الى هذا الكتاب لنرى ما قالهُ صاحبهُ عمَّا كان يراهُ بعينيهِ ويسمعهُ باذنيهِ فالتقطنا منهُ الفقرات التالية وكانت متفرقة في بعض مكاتيبهِ التي كتبها وهو في هذا القطر وسننشرها الآن حسب تواريخها ولا نعقب عليها بشيء من عندنا بل نترك الحكم فيها للقارىء اللبيب وهو يستنتج منها ما شاء

جُعل المستر باركر قنصلاً في الاسكندرية بعد ان كان قنصلاً في حلب فقام من حلب الى السويدية وانتظر الى ان جاءتهُ بارجة انكليزية في ٩ اكتوبر سنة ١٨٢٦ فحملتهُ هو وعائلتهُ ومرت في طريقها على بيروت وصيداء وبلغ الاسكندرية في ٢٥ اكتوبر . وكانت الاسكندرية حينئذٍ صغيرة حقيرة لم يكن فيها الاَّ مركبتان مركبة محمد علي ومركبة صهرهِ محرَّم بك

وفي ٢٥ نوفمبر كتب الى وكيل نظارة الخارجية في لندن كتاباً طويلاً ورد فيهِ الكلام التالي عن محمد علي باشا

"يسرُّني ان اخبركم انهُ في مقابلتي الاولى للوالي[1] لاقدم لهُ اوراقي الرسمية قابلني سموهُ باللطف والاكرام . ولكي لا ينهض لي حين دخولي ولا يقابلني جالساً كما قابل قنصل سردينيا الجنرال وقنصل النمسا الجنرال اتى الغرفة التي أُدخلت اليها من غرفة أُخرى وهذا اكرام خاص .

(١) الكلمة الانكليزية Viceroy ومعناها نائب الملك ومولف خديوي مصر حتى الآن باللغة الانكليزية وقد احسنا ترجمها بالوالي لان هذا كان لقب والي مصر قبل ان اعطي لقب خديوي

فاخبرتهُ ان ملك الانكليز تكرَّم وعينني قنصلاً لدى سموه في الاسكندرية ثم سلم ترجماني براءة تعييني الى يوغص يوسف ترجمان سموه فامر الباشا بردها الى ترجماني من غير ان يفتحها . وجعل يحدثني كأني احد معارفهِ واخبرني عن اربع فرقاطات تبنى لهُ الآن في مرسيليا ولفورن وسترسل اليهِ في الربيع القادم وقال ان الاروام لم يوقعوا بسفينة من سفنهِ حتى الآن . ومدح سلفي المستر لي وقال انهُ كان على جانب عظيم من التعقل مستدلاً على ذلك بانهُ لم يكن يعترضهُ في شيء ولا يخالف لهُ حكمًا لانهُ لا يحكم الاَّ بالحق والعدل ورغب في ان اكون مثلهُ فاتفق مع سموه كما كان المستر لي متفقًا معهُ . ودامت المقابلة اكثر من نصف ساعة قصَّ عليَّ فيها القصة التالية قال ولدتُ في قرية من بلاد الارناؤوط وكان لابي عشرة اولاد غيري ماتوا كلهم الآن ولكنهم لمَّا كانوا احياء لم يكن احد منهم يخالفني في شيء . وقد تركت بلدي قبلما بلغت سن الرشد ولكن كان اهل بلدي يستشيرونني في كل امر واتيت الى هذه البلاد وانا لا املك شيئًا ولما كنت في رتبة بكباشي جاء مورّد الخيام ليعطي كلاًّ من البكباشيَّة خيمة وكانوا كلهم اقدم مني ويحق لهم التقدم عليَّ لكن مورد الخيام قال لهم نحوا كلكم لان هذا الشاب محمد علي مقدَّم عليكم فاعطاني خيمتي اولاً . وارتقيت رويدًا رويدًا بمعونة الله الى ان بلغت هذا الحد. قال ذلك وانتصب في مجلسهِ ونظر من شباك الى جانبهِ يطل على بحيرة مريوط . ثم نظر الى البراءة في يد الترجمان وقال نعم بلغت هذا الحد وليس لي معلم

وكتب اليهِ بُعيد ذلك يقول : اخَّر الوالي سفرهُ الى القاهرة حتى امس بسبب ما حدث من التأخر في اعداد الاسطول وقد أُعدَّ وسار في العشرين من الشهر قاصدًا المورة بقيادة صهرهِ محرم بك وهو ثمانٍ وسبعون قطعةً ثلاثون منها بوارج حربية واربع حراريق و١٦ من مراكب النقل التركية و٢٨ من مراكب النقل الاوربية اكثرها رافع للعلم النمسوي . وفيها المبرة للجنود ونحو ٨٠٠٠٠٠ او ٩٠٠٠٠٠ ريال اسبانيولي

وكتب في ٢٥ مايو سنة ١٨٢٧ يقول : الوالي مشغول الآن باصلاح بارجتين كبيرتين وخمس عشرة فرقاطة ارسلها الباب العالي الى هنا لاصلاحها . وعند سموه نحو ثلاثين فرقاطة وكورنت خاصة بهِ . وهو يمتحن الآن السفن التي جاءتهُ حديثًا من لفورن ومرسيليا

وكتب الى قنصل ازمير في ١٩ جون سنة ١٨٢٩ يقول : ماذا يستفيد الفرنسويون من صداقة الباشا . ليُظهر ما شاء من الصداقة لهم اما نحن فيهمنا ان يخشى بأسنا وهذا هو مبدأ سياستنا . ضع الخوف من انكلترا في كفة الميزان الواحدة وكل صداقتهِ لفرنسا وتملقهِ لها وتزلفهِ اليها في الكفة الاخرى وانظر ايهما ارجح

وكتب الى لورد بردهو (الذي صار دوق نورثمبرلند) في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٧ يقول: وصل اربعة آلاف جندي من القاهرة وهم في العدَّة الكاملة والانتظام التام ومعهم جوقتان من الموسيقى العسكرية معهما ثلاثون من آلات النفخ وكلهم من اولاد العرب يتخرجهم اي فيلق كان من الفيالق الانكليزية والمظنون ان الاسطول ينقلهم الى المورة في الاسبوعين التاليين وقال في كتاب كتبهُ حينئذٍ الى صديق لهُ ان هواء الاسكندرية على غاية الجودة والمقام فيها طيب ولكن حال الافرنج فيها اسوأ ما يكون في بلاد الترك لان القناصل اطمعوا الباشا بهم وهم الآن تحت رحمته

وخاف سكان الاسكندرية ان تنشب الحرب بين تركيا والدول الاوربية بسبب المورة فتضطر مصر ان تحارب مع تركيا فكتب في ٢٤ يوليو يقول : لاخوف من ذلك لان محمد علي يبقى على الحياد حينئذٍ لئلاَّ تتلف عمارتهُ البحرية وهي اعز شيء لديهِ وعليها اعتمادهُ اذا اراد ان يبقى في ولاية هذه البلاد

ثم اتلفت عمارات الدول الاوربية العمارة التركية والعمارة المصرية في العشرين من اكتوبر كما هو معلوم . وبلغ الخبر محمد علي فرضخ لاحكام القدَر وقابلهُ المستر باركر حينئذٍ وقال لهُ ان الاتراك هم الذين اطلقوا القنابل اولاً ولولا ذلك ما حدث شيء ممَّا حدث فقال لهُ كلاَّ بل ان ماحدث مقدور لا يمكن ردهُ

وكتب الى السر ادورد كودرنجتون امير الاسطول الانكليزي في البحر المتوسط في ٢٨ نوفمبر يقول : وصلني كتابكم المؤرخ من نفارين في ٢٥ اكتوبر وعليهِ اجيب ان سمو الوالي بلغهُ خبر تخريب عمارتهِ ولم يحدث لنا شيء ممَّا كنا نخشى وقوعهُ وفي الثاني من هذا الشهر انتشر الخبر في الاسكندرية ولكن لم يبدُ من الاهالي اقل شيء من علامات الغيظ والانتقام . وقد ابدى سمو الوالي الصبر ورحب الصدر في هذه النازلة . وحينما كان يقرأ خبرها كان يتوقف مرارًا ويقول لقد انبأتهم بذلك وانذرتهم بهذهِ العاقبة لانني اعلم من هم الاروام . وقبل ان يتم قراءة التقرير ارسل واستدعى الكونت دواسنفيل قومندان الفرقاطة الفرنسوية لافستال واكَّد لهُ ان تخريب عمارتهِ لا يغير مودتهُ للرعايا الفرنسويين ولا لغيرهم من الاوربيين المقيمين في بلادهِ الذين يحسبهم اهلاً لعنايتهِ وحمايتهِ كيفما تقلَّبت الاحوال

وفي اليوم التالي قابلت سموهُ فقابلني متعطفاً بلطف يزيد على المعتاد واكَّد لي ما قالهُ سابقًا وهو انهُ اذا نشبت الحرب بيننا وبين الباب العالي فالانكليز الذين في القطر المصري يبقون متمتعين بالحماية والرعاية ولا ينالهم اقل اذًى . ثم قال اني اشتهرت بالعدل والحرية ولا بدَّ لي من الاحتفاظ بهذه الشهرة

وقلت لهُ ان السلطان انذر اوربا بقتل كل النصارى في مملكتهِ اذا تلفت عمارتهُ فلم يقل لي لاتصدّق هذا الكلام بل قال "انهُ ان كان السلطان يفعل هذا الامر المنكر فلا يكون مسلمًا بل يكون كافرًا بشريعتنا لانها تأمرنا امرًا صريحًا بحفظ ذمة النصارى القاطنين في بلادنا"

ويظهر لي انهُ يترقب الفرص الآن حتى اذا نشبت الحرب بين الباب العالي ودول اوربا يجد سبيلاً للبقاء على الحياد لكنهُ لا يترك التأهب وعندهُ الآن نحو خمسة آلاف او ستة آلاف من فرسان البدو والمال قليل في خزانتهِ لكثرة ما انفق على حرب المورة ولانهُ جاء على البلاد سنتا قحط وزد على ذلك كثرة النفقات التي انفقها على معاملهِ ومرفإ الاسكندرية والقصور الفخيمة التي تفوق قصور الاستانة مع ان ايرادهُ لا يزيد في سني الخصب على اربعة ملايين من الجنيهات ولذلك لا ادري من اين يأتي بالمال لهذه النفقات

قال جامع الكتاب ولم يكن المستر بارکر يدري ان محمد علي يتّجر بحاصلات البلاد فيها ويربح منها ربحًا وافرًا فممّا علم ذلك كتب في ٣٠ مايو سنة ١٨٢٧ يقول : قبلما اتيت هذا القطر كنت احسب ان سموّهُ يرسل الحاصلات الى اوربا لتباع فيها كما يفعل التجار فيكتب الى عمالهِ مثلاً اني مرسل اليك كذا وكذا بالة من القطن بالسفينة الفلانيّة وطيهُ ورقة الشحن فاستلم البضاعة بموجبها وادفع اجرة الشحن وبع البضاعة بالثمن الأحسن وابقِ صافي الثمن تحت امري . وظننت انهُ يمكنني ان اقنع بوغوص ليرسل بعض القطن الى اخي في جنوى لكنني وجدت الامر على غير ذلك فان الباشا عرف بالاختبار ان التجّار يخونونهُ اذا ائتمنهم ولذلك فالطريقة الفضلى لهُ ان يأتي بالقطن الى الاسكندرية ويبيعهُ بالمزاد لمن يرسو عليهِ اعلى سعر ويكون الثمن نقدًا . ثم صار يحتاج الى النقود قبل اوان الموسم لكثرة ما تقتضيهِ مشروعاتهُ من النفقات فصار يقول للتجار اني اقدم لكم بعد ثلاثة اشهر او اربعة او خمسة او ستة كذا بالة من القطن واطلب منكم الآن تسعة اعشار الثمن نقدًا والتعهد بارسال القطن الى عملائكم في اوربّا . وقد بلغ من تناظر التجار بعضهم مع بعض انهُ اوصل بيت فرنسوي منهم ثمن القنطار الى ثلاثة عشر ريالاً يدفع نصفها او ثلثيها سلفًا والباقي عند التسليم . ويقول الذين ذاكرتهم في هذا الموضوع من اصدقائي ان هذا الثمن فاحش وفيهِ غبن كثير على المشتري . واذا بعث الباشا بالقطن الى التاجر وعلم انهُ يبقى لهُ عندهُ جانب من الثمن طلب منهُ ان يرسل اليهِ بعض الآلات الثمينة او نحو ذلك ممّا يفوق ثمنهُ الجانب الباقي من ثمن القطن حتى يكون مديونًا لا دائنًا حاسبًا ان حماقة تجار اوربا تجعلهم يرسلون ما يطلبهُ منهم لكي لا يخسروا معاملتهُ

وكتب الى اخيهِ في ٢٥ دسمبر سنة ١٨٢٧ يقول : "رجعت الآن من رشيد وقد ذهبت اليها

في النيل مع جماعة متنزهاً . اول شيء وقع عليهِ نظري شجرات من الصفصاف راقني منظرها جدًّا حتى كدت اطرح نفسي تحتها. ثم زاد المنظر جمالاً وبهجةً الى ان وصلت الى ابي الانهار ودخلت السفينة فسارت بنا والنسيم يسوقها والتيار جارٍ معها وانا اشعر بسرور وارتياح لم اشعر بمثلهما في حياتي الى ان تعطرت الارجاء برائحة النارنج فعلمنا اننا صرنا على مقربة من رشيد . والتفتُّ الى الشاطئ واذا انا بجبل من بالات القطن فيهِ الف وخمسماية بالة وبجبل آخر من اكياس الفول جبل شاهق يصعد عليهِ السيَّاح فيطلُّون على المدينة والبلاد المجاورة . هذه احدى عجائب مصر . ورأيت اربعين آلة لضرب الارز وعشرة ومعملين بديعين لنسج القطن ومعملاً فاخرًا لعمل الطرابيش المغربيَّة لم يستطع الاوربيون ان يناظروهُ . وفي هذه المعامل ثلاثة آلاف او اربعة آلاف عامل لا يساعدهم احد من الاوربيين"

وعادت بقية الاسطول العثماني الى مصر في اوائل سنة ١٨٢٨ فكتب المستر باركر يقول: "عاد محرَّم بك ومعهُ عشرون الفًا منهم ٥٥٠٠ من اسرى الاروام والباقون بحارة. والسفن التي عادت ٤٧ ونقسم هكذا

السفن المصرية	عدد	السفن التركية	عدد
فرقاطة فيها ٦٠ مدفعًا	١	بارجة	١
كورفت	٥	فرقاطة فيها ٤٤ مدفعًا	٤
ابريق حربي	١١	كورفت	٤
سفن نقل	٢١		٩
	٣٨		

وبلغني ان عند ابرهيم باشا من المير ما يكفيهِ ثلاثة اشهر او اربعة. وكان اكثر الاسرى من الفتيان والفتيات فوزعوا على بيوت الكبراء في الاسكندرية والقاهرة ووعد محمد علي بردهم الى اهلهم لكني اشك في مقدرتهِ على انجاز هذا الوعد"

والحَّت الدول المتحابة على ابرهيم باشا ان يترك المورة ويمضي الى الروملي فكتب الى ابيهِ يستشيرهُ في الامر وجاء السر ادورد كوردنجتون امير البحر الى الاسكندرية لهذا الغرض وبعد جدال طويل امضى محمد علي المعاهدة التي بموجبها خرجت الجنود المصرية من المورة وكان للمستر باركر اليد الطولى في ذلك . ثم اشتغل في افتداء الاسرى فلم يقبل منهم بالعتق الاَّ اربع مئة واما الباقون ففضَّلوا البقاء في مصر

وعاد ابرهيم باشا الى مصر فكتب المستر باكر في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٢٨ يقول : "عاد

ابرهيم باشا وكل جنوده تصحبهم البارجة الانكليزية دارتموث وبارجة اخرى اوربية ومع ابرهيم باشا خمسة عشر الفاً وهم والخمسة الآلاف الذين رجعوا قبلاً نصف الجيش الذي ذهب الى المورة وعاد معهم اربع مئة من نساء الاروام متزوجات برجال منهم"

وكتب الى احد اصدقائه في ١٧ يناير سنة ١٨٢٩ يقول :

" اني انا والمسيو دروفتي (قنصل فرنسا) راضيان بالحالة الحاضرة لا شيء يقلقنا ولكن المسيو بزاني قنصل روسيا الجنرال أُمر بالرحيل عن هذه الديار منذ بضعة ايام مع ان الباشا كان قد سمح له بالبقاء فيها بغير صفته الرسمية . ويقال ان سبب ذلك اوامر جديدة وردت من الاستانة ولكن من المؤكد انهُ اغاظ الباشا منذ ايام فانهُ زارهُ يوم الجمعة ودخل مجلسهُ من غير استئذان وكان غاضاً بالعلماء وتقدم وجلس الى جانبهِ فوق صهوهِ محرَّم بك . ولما خرج سأل بعض الحضور مَن هذا الرجل فقال الباشا ببداهتهِ المشهورة انهُ قنصل روسيا الذي عزمتُ ان اخرجهُ من بلادي"

وكتب في ٥ مايو يقول : "وردت الاوامر بتعييني قنصلاً جنرالاً في القطر المصري وكتب اليَّ لورد ابردين يقول لقد سررت جدًّا بما بدا منك من سداد الراي في حل المشاكل السياسية التي ظهرت حديثاً وانت في منصب النيابة عن القنصل الجنرال فعرضت اسمك على جلالة الملك لتعيينك في هذا المنصب فتكرَّم جلالتهُ واجاب طلبي"

وكتب في ٦ مايو سنة ١٨٢٩ يقول : "لا يزال ابرهيم باشا يؤخر السفر بجنوده لاعانة السلطان على الروس واخيرًا رضي السلطان ان يأخذ من محمد علي مليون ريال بدل هذه الاعانة"

وكتب في غرة سبتمبر سنة ١٨٢٩ يقول : "ان الباشا باذل اقصى جهدهِ في تحصين الثغور البحرية لانهُ يحسب ان السلطان سيعود اليهِ ويناقشهُ الحساب بعد فراغهِ من حرب الروس . وعندهُ الآن خمسون الفاً من الجنود المنظمة وخمسة عشر الفاً من البدو وهو قادر على مناوأة السلطان من حيث عدد الجنود وتنظيمها ولكن سلطة السلطان الدينية وان تكن قد ضعفت كثيرًا لا تزال ترهبهُ . وقد سمعنا الآن بمقدمات الصلح بين الاتراك والروس . ثم كتب يقول : طغى النيل سنة ١٨٢٩ فاتلف من المزروعات ما يقدَّر بثلاثة ملايين من الريالات ولذلك تأخر محمد علي عن مساعدة السلطان على دفع القسط الاول من غرامة الحرب لروسيا ولكنهُ لم يتأخر عن التأهب مخافة من ان يقصدهُ السلطان بمكروه . وغاظهُ عقد الصلح بين الدولة والروس لانهُ اراح السلطان . وقد انزل في الاسبوع الماضي فرقاطة محملها خمسون مدفعاً بناها لهُ رجل تركي امي لا يقرأ ولا يكتب . وعندهُ رجل فرنسوي اسمهُ ده سريسي وهو

الذي يبني سفنهُ عادةً وقد بنى لهُ الآن بارجة محمولها ١١٠ مدافع ولا يزال يبني ثلاث بوارج اخرى عدا الفرقاطات والكورفتات

وكتب الى القنصل الجنرال في الاستانة في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٢٩ يقول: "طلب السلطان اسطولهُ واسطول محمد علي ومبلغًا طائلاً من المال فارسل اليهِ الاسطول الاول والمال الذي طلبهُ واما الاسطول الثاني (اي اسطول محمد علي) فلم يرسلهُ لعلمهِ ان بقاءهُ في ولاية هذه البلاد متوقف على اسطولهِ. واسطول السلطان مؤلف من ثماني عشرة سفينة فيها بارجة وفرقاطة لا تصلان الى الاستانة والبقية وهي خمس فرقاطات وعشرة كورفتات في حالة صالحة. اما المال المطلوب فهو خمس مئة الف ريال ولولا الضرر الذي حلَّ بالقطر بسبب فيضان النيل لارسل مبلغًا اكبر من هذا واني ارى رأيك وهو ان وقوع العداء بينهُ وبين السلطان ليس من مصلحتهما. ومحمد علي يبذل كل مرتخص وغالٍ ليبقى على ما هو عليهِ لانهُ حائز تمام الاستقلال فعلاً"

وكتب في ١٦ مارس سنة ١٨٣٠ يقول: "ان دولتهُ طلبت منهُ ان يخابر محمد علي في مهمةٍ سريةٍ ذات شأن كبير وان محمد علي ابى ان يساعد الفرنسويين على اخذ بلاد الجزائر واغناظ من اغارتهم عليها قائلاً انهم سيمتلكون كل ساحل افريقية الشمالي ويصيرون في جواري وهذا يسوءني جدًّا. ولم تبقَ شبهة في انهُ ينوي الاغارة على بلاد الشام لان الاستعداد لذلك قائم على ساق وقدم"

وكتب في اول ابريل يقول: "في الرابع والعشرين من الشهر الماضي تكلَّم ابرهيم باشا مع ضباط جيشهِ وبيَّن لهم عزمهُ على مناوأة الدولة كأنهُ يريد ان يؤثر في عقولهم استعدادًا لهذا الحادث الجلل حتى اذا حدث لا يستعظمونهُ ومما قالهُ لهم "ماذا انتفعت انا او انتفعتم انتم من السلطان لو طلبنا منهُ شربة ماء لمنعها عنَّا ونحن كلنا قد اكلنا خبز محمد علي وربينا عندهُ كاولادهِ وبفضلهِ وكرمهِ وصلنا الى ما وصلنا اليهِ انا وانتم. مصرلهُ اخذها بسيفهِ ولذلك لا نعرف لنا حاكمًا غيرهُ"

ومن الاغلاط الشائعة ما يزعمهُ البعض من ان ابرهيم باشا ليس ابن محمد علي بل هو مملوكهُ ولكن كل من يرى الاثنين يجد الشبه التام بينهما ولا سيما في قصر الذراعين. وسبب هذا الغلط ان محمد علي كان يظهر الحب لابنهِ طوسن اكثر مما يظهرهُ لابرهيم. ثم ان رتبة ابرهيم باشا اعلى من رتبة ابيهِ لانهُ امير الحرمين وتليها رتبة امير الشام او امير الحج ثم رتبة امير بغداد ثم رتبة امير مصر وهي رتبة ابيهِ"

« ستأتي البقية »